وقوله الحق فى سورة الحشر:

﴿ والَّذين جاءُوا منْ بعْدهمْ يقُولُون ربَّنا اغْفرْ لنا ولإخْواننا الَّذين سبقُونا بالإيمان ... ⑩ ﴾ [الحشر]

وهى معطوفة أيضاً [1].

وهنا فى الآية التى نحن بصددها يقول الحق:

﴿ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ⑩⓪ ﴾ [التوبة]

وفى هذا القول ما يطمئن أمة محمد ﷺ ، فلم يأت لنا فقط بخبر الفئة السيئة من المنافقين من العرب ، والمنافقين من الأعراب ، ولكنه أوضح لنا أن هناك أناساً أوصلوا لنا جمال هذا الإيمان.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ⑩① ﴾

أوضح سبحانه: وطّنوا أنفسكم على أن من حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون ، وهذا التوطين يعطى مناعة اليقظة ؛ حتى لا يندس واحد من المنافقين على أصحاب الغفلة الطيبين من المؤمنين ، فينبههم

(١) وقد استشهد أبيّ بن كعب أيضاً بآية: ﴿ والَّذين آمنُوا منْ بعْدُ وهاجرُوا وجاهدُوا معكُمْ فأُولئك منكُمْ ... ﴾ [الأنفال: ٧٥]

الحق : انتبهوا فأنتم تعيشون فى مجتمع محاط بالمنافقين. والتطعيم ضد الداءات التى تصيب الأم وسيلة من وسائل محاربة العدو ، ونحن نفعل ذلك مادياً حين نسمع عن قرب انتشار وباء ؛ فنأخذ المصل الواقى منه ، رغم أنه داء إلا أنه يعطينا مناعة ضد المرض.

وهكذا يربى الحق المناعة بحيث لا يمكن أن يُهاجَم المؤمنون عن غفلة ، فيقول: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ و «مرد» يمرد أى : تدرب وتمرن ، ويبقى الأمر عنده حرفة ، وكأن الواحد منهم يجيد النفاق إجادة تامة. وكل ذلك ليوجد مناعة فى الأمة الإسلامية ؛ حتى يكون المؤمن على بصيرة فى مواجهة أى شىء ، فإذا رأى أى سلوك فيه نفاق اكتشفه على الفور . واليقظة تدفع عنك الضر ، ولا تمنع عنك الخير.

وافرض أن واحداً قال لك: إن هذا الطريق مَخُوف لا تمش فيه وحدك بالليل . ثم جاء آخر وقال : إنه طريق آمن ومشينا فيه ولم يحدث شىء ، فلو أنك احتطْتَ وأخذت معك سلاحاً أو رفيقاً فقد استعددت للشر لتتوقاه، فَهَبْ أنه لم يحدث شىء، فما الذى خسرته ؟ إنك لن تخسر شيئاً.

وهذه قضية منطقية فلسفية يُردّ بها على الذين يشككون فى دين الله ، مثل المنجِّمين ، ومَن يدَّعون الفلسفة ، ويزعمون أنه لا يوجد حساب ولا حشر ولا يوم آخر ، فيقول الشاعر:

زَعَم المنجِّم والطَّبيبُ كلاهما لا تُحْشَرُ الأجسَاد قلْتُ إليكُمَا
إنْ صَحَّ قولكُمَا فَلَسْتُ بخَاسِرٍ أَوْ صَحَّ قَوْلِى فَالخسَار عليكُما

أى: إن كان كلامكم صحيحاً من أنه لا يوجد بعث - والعياذ بالله - فلن أخسر شيئاً ؛ لأنى أعمل الأعمال الطيبة . وإن كان هناك بعث - وهو

حق - فسوف ألقى الجزاء فى الجنة ؛ وبذلك لم أخسر ، بل كسبت . لكن افرضوا أنكم عملتم الشر كله وجاء البعث فأنتم الخاسرون . والقضية الفلسفية المنطقية هنا هى : إن لم أكسب فلن أخسر ، وأنتم إن لم تخسروا فلن تكسبوا .

والحق فى هذه الآية يقول :

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ . .﴾

وكلمة ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ تفيد أنكم محاصرون ، لا ممن حولكم فقط ، بل أيضاً ببعض من الموجودين بينكم فى المدينة ، وهم من تدربوا على النفاق حتى صارت لهم ألفة به .

وهذه الآيات - كما تعلم - قد نزلت تحكى حال المنافقين . والنفاق تتعارض فيه ملكات النفس الإنسانية بأن توجد ملكة كفر فى القلب ، بينما توجد ملكة إيمان فى اللسان ، فلا يتفق اللسان مع القلب ، فالذين آمنوا يوافق ما ينطقون به ما فى قلوبهم ، والذين كفروا وافقت قلوبهم ألسنتهم .

أما الصنف الثالث : وهم الذين نطقوا بالإيمان بألسنتهم ، ولم تؤمن قلوبهم ، فهؤلاء هم المنافقون .

وهو لفظ مأخوذ من « نافقاء اليربوع » ، وهو حيوان صحراوى يشبه الفأر ، ويخدع من يريد صيده ، فيجعل لبيته أو جحره عدة فجوات ، فإذا طارده حيوان أو إنسان يدخل من فجوة ، فيتوهم الصائد أنه سيخرج منها ، ويبقى منتظراً خروجه ، بينما يخرج اليربوع من فجوة أخرى ، فكأنه خادع الصائد ، فالصائد يظن أن للجحر باباً واحداً ، ولكن الحقيقة أن للجحر أكثر من مدخل ومخرج . والنفاق بهذه الصورة فيه ظاهرتان : ظاهرة مَرَضيّة فى المنافق ، وظاهرة صحية فى المنافَق ؛ ولذلك لم ينشأ النفاق فى مكة ، وإنما نشأ فى المدينة .

ومن العجيب أن ينشأ النفاق فى المدينة التى آوت الإسلام وانتشر منها ، وانساح إلى الدنيا كلها ، ولم يظهر فى مكة التى أرادت أن تطمس الإسلام ، وحارب سادتُها وصناديدُها الدعوةَ.

إذن: فلا بد أن نأخذ من النفاق ظاهرتين : الظاهرة الأولى وهى الظاهرة المرضيّة ، حيث قال الحق:

﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ... ﴿١٠﴾﴾ [البقرة]

أما الظاهرة الثانية فهى الظاهرة الصحية ، فقد أصبح الإسلام قوياً بالمدينة غيره عند بدء الدعوة فى مكة . إنما يُنَافَق القوى [1] ؛ لأن المنافق يريد أن ينتفع بقوة القوى ، كما أن المنافق يعرف أنه لن يستطيع مواجهة القوى ، أو أن يقف منه موقف العداء الظاهر.

إذن: فالنفاق حين يظهر ، إنما يظهر فى مجالات القوة ، لا فى مجالات الضعف ، فالرجل الضعيف لا ينافقه أحد ، والرجل القوى ينافقه الناس .
إذن: فالنفاق ظاهرة مرضية بالنسبة للمنافق ، وظاهرة صحية فى المنافَق.

وأراد الحق سبحانه أن يكشف للمؤمنين أمر المنافقين الذين يتلصصون عليهم ، أى : يتخذون مسلك اللصوص ؛ فى أنهم لا يُواجِهون إلا فى الظلام ، ويحاولون أن يدخلوا من مداخل لا يراهم منها أحدٌ ، ويتلمّسون تلك المداخل التى لا تظهر ، ويُخْفون غير ما يظهرون.

أما مواجهة الكافر فهى مسألة واضحة ، صريحة ؛ فهو يعلن ما يبطن ، ويواجهك بالعداء . وأنت تواجهه بجميع قوتك وكل تفكيرك ؛ لأنه واضح الحركة . أما المنافق الذى يُظهر الإيمان وفى قلبه الكفر ، فهو

(١) لأنها تبين طبيعة نفسه ، فهذه النفس تنافق الأقوياء لضمان النفع ، ولا نفاق لفقير أو ضعيف لأنهما ليسا مصدرين لمنافع فلا ينافقهما أحد .

يتلصص عليك ، وعليك أن تحتاط لمداخله ؛ لأنه ينتظر اللحظة التى يطعنك فيها من الخلف .

وينبهنا الحق إلى ضرورة الاحتياط ، وأن يمتلك المؤمنون الفطنة والفراسة وصدق النظر إلى الأشياء ، وعدم الانخداع بمظاهر تلك الأشياء ، فكشف لنا سبحانه كل أوجه النفاق ؛ كشف منافقى المدينة حيث يوجد منافقون وغير منافقين ، ومنافقى الأعراب الذين يوجد بينهم منافقون وغير منافقين ، وعَلّم الحق سبحانه المؤمنين كيف يتعرفون على المنافقين بالمظاهر التى تكشف ما يدور فى صدورهم .

وسبحانه القائل عن المنافقين : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ... (٣٠) ﴾ [محمد]

ولكنْ هناك لون من النفاق ، نفاق فنى دقيق ، يغيب على فطنة المتفطن ، وعلى كياسته . ولذلك يوضح لنا سبحانه : أنا لا أكلكم إلى فطنتكم لتعلموا المنافقين ، وإنما أنا أعلمه وأنتم لا تعلمونه ؛ لأنهم قد برعوا فى النفاق ﴿ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ ورغم فطنة رسول الله ﷺ وكياسته فقد أوضح له الحق أنه سيغيب عنه أمرهم ؛ لأنهم احتاطوا بفنّية النفاق فيهم حتى لا يظهر .

لقد عبّر القرآن التعبير الدقيق ، فقال : ﴿ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ والمادة نفسها فى كلمة ﴿ مَرَدُوا ﴾ هى من مرد ، يمرد ، مروداً ، ومارداً ، ومريداً ، هذه المادة تصف الشىء الناعم الأملس الذى لا تظهر فيه نتوءات ، ومنه الشاب الأمرد ، يعنى الذى لم ينبت له شعر يخترق بشرته ، إذن : المادة كلها تدل على الثبات على شىء ، وعدم وجود شىء فيه يخدش هذا الثبات .

ويوضح سبحانه : تنبَّهوا ، فممَّن حولكم من الأعراب منافقون ، وقوله الحق : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم ﴾ يشعرَ بأنهم محاطون بالنفاق ، ولماذا يحاطون بالنفاق ؟ لأن الدعوات الإيمانية لا تظهر إلا إذا طمّ الفساد فى بيئة .

ونعلم أن الحق قد جعل فى النفس أشياء تطرد الباطل ، وإن ألحّ الباطل عليها فترة ، تتنبه النفس إليه وتطرده (١) . وهؤلاء هم الذين يتوبون ، يقترفون الذنب ثم ترجع إليهم نفوسهم الإيمانية فتردعهم . إذن: فالردع إما أن يكون ذاتيـّاً فى النفس ، وإما أن يكون من المجتمع للنفس التى لا يأتيها الردع من الذات ، فهى نفس أمَّارة بالسوء ، وهى لا تأمر بالسوء مرة وتنتهى ، بل هى أمّارة به ، أى : اتخذت الأمر بالسوء حرفة ؛ لأن صيغة « فعّال» تدلنا على المزاولة والمداومة .

وإذا كانت المناعة فى النفس فهذا أمر يسير ويأتى من النفس اللوامة ، وقد يكون المجتمع الذى حول الإنسان هو الذى يردع النفس إن ضعفت فى شىء . وبهذا تكون المناعة فى المجتمع ، أما إذا طمّ الفساد أيضاً فى المجتمع ؛ فلا النفس تملك رادعاً ذاتيـّاً ، ولا المجتمع فيه رادع ؛ هنا لا بد أن تتدخل السماء ، وتأتى دعوة الحق بآياتها ، وبيناتها ، ومعجزة الرسول .

هنا يقف أصحاب الفساد - وتكون نفوسهم أمّارة بالسوء - موقفاً ينافقون به القوة الطارئة الجديدة ، بينما تظل نفوسهم أمّارة بالسوء ، فتظهر ظاهرة النفاق .

وقوله الحق : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ﴾ أى أنكم مطوقـون فى ذاتكم ومن حولكم ، فالنفاق فى ذات المكان الذى تقيمون فيه ، وفيما حولكم أيضاً .

---

(١) يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) ﴾ [الأعراف: ٢٠١] أى : استقاموا وصحوا مما كانوا فيه . قاله ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٧٩) .

وأخشى ما يخشاه الإنسان ، أن يوجد الأمر الضار حوله و فيه ؛ لأنه إن كان الأمر الضار فى المكان الذى يعيش فيه ، فمن حوله يستطيعون إنقاذه أو يستطيع هو أن يهجر المكان ، لكن إن كان محاصراً بالضرر ممن حوله ومن المكان الذى يحيا فيه ، فإلى أين يذهب ؟

ويريد سبحانه أن ينبه المؤمنين إلى أن ظاهرة النفاق متفشية ؛ منها ما تستطيعون - أيها المؤمنون - معرفته بمعرفة حركات المنافقين وسكناتهم ولحن قولهم وتصرفاتهم [1]، ومنها أمر دقيق خفى لا تعلمونه ، ولكنه سبحانه يعلمه ؛ ولأنكم غير مسلمين لأنفسكم ، ولكم رب يعلمكم ما لا تعلمون فاطمئنوا ؛ فسوف يفضحهم لكم . ونتيجة هذا العلم أنكم سترون فيهم العقوبات ؛ فيأتى فيهم القول الحق : ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ [2] ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ .

هم إذن سيعذبون مرتين فى الدنيا ، ثم يردون لعذاب الآخرة ، وأول عذاب لمن يستر نفاقه أن يفضح نفاقه ؛ولذلك خطب رسول الله ﷺ فقال: "قم يا فلان فأنت منافق ، قم يا فلان فأنت منافق ، قم يا فلان فأنت منافق" [3]

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « إن للمنافقين علامات يعرفون بها : تحيتهم لعنة ، وطعامهم نهبة ، وغنيمتهم غلول ، ولا يقربون المساجد إلا هجراً ، ولا يأتون الصلاة إلا دبراً ، مستكبرين لا يألفون ولا يؤلفون ، خشب بالليل ، صخب بالنهار » . أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٢٩٣) والبزار (٨٥ - كشف الأستار) قال الهيثمى فى المجمع (١/ ١٠٢) : « فيه عبد الملك بن قدامة الجمحى ، وثقه يحيى بن معين وغيره وضعفه الدارقطنى وغيره » .

(٢) إحداهما فى الدنيا والأخرى فى القبر بعرض ما يعذب به فى الآخرة .

(٣) عن أبى مسعود الأنصارى قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إن فيكم منافقين ، فمن سميت فليقم . ثم قال : قم يا فلان ، قم يا فلان ، قم يا فلان . حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً . . » . أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٧٣) والبيهقى فى دلائل النبوة (٦/ ٢٨٦) قال الهيثمى فى المجمع (١/ ١١٢) : « فيه عياض بن عياض عن أبيه ولم أر من ترجمهما » .

أو تأتى له مصائب الدنيا . ولقائل أن يقول : وهل المصائب عذاب للمنافق ، إن المصائب قد تصيب المؤمن أيضاً ؟

ونرد : إن المصائب تأتى للمؤمن لإفادته ، ولكنها تأتى للمنافق لإبادته . فالمؤمن حين يصاب ؛ إما أن يكفر الله به عنه ذنباً ، وإما أن يرفعه درجة به [1] لكن المصائب حين تصيب المنافق فهى مغرم فقط ؛ لأن المنافق لا يرجو الآخرة ؛ ولذلك يقال :

إن المصاب ليس من أصيب فيما يحب ، ولكن المصاب هو من حرم الثواب .

فإن استقبل المؤمن المصيبة بالرضا ، وعلم أن الذى أجراها عليه حكيم ، ولا يجرى عليه إلا ما يعلم الخير وإن لم يعلمه ؛ فهو ينال الثواب على الصبر والأجر على الرضا ، وهكذا يخرج من دائرة الألم العنيف . أما غير المؤمن فهو يتمرد على القدر ، وبعدم إيمانه يُحْرَم من الثواب .

أو أن العذاب مرتين ، غير الفضيحة بنفاقهم ، فيتمثل فى محاولتهم أن يظهروا بمظهر الإيمان والإسلام ، فيخرج الواحد منهم الزكاة من ماله ، والمال محبب للنفس ؛ لذلك فهو يخرج الزكاة مرغماً ، ويشعر أنه قد خسر المال لأنه لا يؤمن بإله ؛ لذلك فمصيبته كبيرة . وقد يرسل المنافق ابنه للحرب وهو يعلم أنه ليس له فى ذلك ثواب ، وهذا لون آخر من العذاب .

وهذا العذاب متحقق بقول الحق : ﴿وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى الدُّنْيَا ... (٨٥)﴾ [التوبة]

(١) عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها ، إلا رفعه الله بها درجة ، أو حط عنه بها خطيئة » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٢) و أحمد فى مسنده (٦/ ٤٢) والترمذى فى سننه (٩٦٥) وقال : حديث حسن صحيح .

أو أن يكون العذاب فى الدنيا هو ما يرونه حين تغرغر النفس ، لحظة أن تبلغ الروح الحلقوم ، ويرى المُغَرْغِر الملائكة مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنفال]

وكل هذه ألوان من العذاب فى الدنيا .

والإنسان - كما نعلم - فى استقبال الزمن له ثلاث حالات : زمن هو حياته الدنيا ، وزمن هو زمن موته ، وزمن هو زمن آخرته . فحين يصاب المؤمن فى الزمن الأول - زمن حياته - يُعزِّيه فى مصابه الزمنُ الأخير ، وهو زمن آخرته .

أما حين يصاب الكافر أو المنافق فى زمن حياته ، فلا شىء يعزيه أبداً ؛ لأنه لا يؤمن بالله ولا هو يطمع فى شىء من خيره سبحانه .

ويأتيه الزمن الثانى ، وهو زمن الموت ، وفيه عذاب القبر .

والعذاب إنما يكون بأحد اثنين : إما عرض ما يعذب به ، أو دخول فيما يعذب به ، وهذا يكون فى الآخرة . أما عرض العذاب فهو فى القبر [1] كأنه يقول لك : انظر ما ينتظرك [2] . وما دام الإنسان يرى الشر الذى

(١) وذلك من نحو قوله سبحانه : ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر] قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٨١) : «دلت الآية على عرض الأرواح على النار غدواً وعشياً فى البرزخ ، وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها فى القبور ، إذ قد يكون ذلك مختصاً بالروح ، فأما حصول ذلك للجسد فى البرزخ وتألمه بسببه فلم يدل عليه إلا السنة فى الأحاديث المرضية » .

(٢) عن ابن عمر قال: قال ﷺ : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل إليه يوم القيامة » . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣٧٩) ومسلم فى صحيحه (٢٨٦٦) . واللفظ لمسلم .

ينتظره ، أليس هذا عذاباً ؟

إنه عذاب مؤكد .

﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ ولو قال الحق : " نعذبهم مرتين" فقط بدون السين ، لصار لها معنى آخر مختلف تماماً . يتلخص في أن من يصيبه عذاب ، فقد انتهى حسابه . لكن قوله : ﴿سَنُعَذِّبُهُم﴾ يؤكد لنا كلما قرأناه أن العذاب متصل .

ويُنهي الحق الآية الكريمة بقوله :

﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ وكلمة ﴿ يُرَدُّونَ ﴾ مثلها مثل ﴿يُرْجعون﴾ أو ﴿ يَرْجعون﴾ و نحن نقول مرة : " يُرْجعون" وأخرى "يَرْجعون" ، فكأن النفس البشرية تألف جزاءها في قولنا : "يَرْجعون" ، أما قولنا : " يُرْجعون" ففي الكلمة قوة عليا تدفعهم ألا يتقاعسوا .

وهكذا نجد المعذَّب إما مدفوع بقوة عُليا ، وإما أن توجد فيه قوة ذاتية تجعله يذهب إلى العذاب . والإنسان قد يتصرف تصرفاً ما ، ثم يرد إلى أفكاره فلا يعجبه هذا التصرف ، ويستقبل نفسه بالتوبيخ وبالتعنيف ؛ لأن هناك إلحاحاً من النفس على العقوبة ، وهو إلحاح يأتي من ذات النفس .

والنفس الأمارة بالسوء قد تقضي حياتك معها في أمر بالسوء ، ثم حين يأتي العقاب فأنت تقول لها : " اشربي أيتها النفس نتيجة ما فعلت " .

إذن فالمعذَّب يُدفع مرة للعذاب ، وأخرى يندفع بذاته .

﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ ومثلما قلنا من قبل : فإن هناك ألواناً متعددة من العذاب ، فهناك العذاب العظيم ، والأليم ، والمهين ، والمقيم . والعذاب العظيم يأتي إما بأسباب وإما بمسبِّب ، وعذاب الدنيا كله

بأسباب، فقد يكون العذاب بالعصا ، أو بالكرباج ، أو بالإهانة ، والأسباب تختلف قوة و ضعفاً ، أما عذاب الآخرة فهو بمسبِّب ، و المعذِّب فى الآخرة واحد وقوته لا نهاية لها ، وإن قستَ عذاب الآخرة بالعذاب فى الدنيا فمن المؤكد أن عذاب الآخرة عذاب عظيم [1] .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾

وقوله الحق : ﴿ وآخَرُونَ ﴾ معطوفة على قوله : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ ، فهل يظلون جميعاً على النفاق ، أم أن منهم من يثوب إلى رشده ؛ ليجد أن موقفه مخزٍ حتى أمام نفسه ؟ لأن أول ما ينحط المنافق إنما ينحط أمام نفسه ؛ لأنه نافق ولم يقدر على المواجهة ، واعتبر نفسه دون من يواجهه ؛ فيحتقر نفسه ، ولا بد أن منهم من يأنف من هذا الموقف ، ويرغب فى حسم المسألة : إما أن يؤمن وإما أن يكفر ، ثم يرجح الإيمان ، ويتخلص من النفاق ؛ بأن يعترف بذنوبه .

وبذلك يصبح ممن يقول الحق عنهم : ﴿ وآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أى : ممن لم يُصرّوا على النفاق [2] ، واعترفوا بذنوبهم ، والاعتراف لون من الإقرار . والإقرار بالذنب أنواع ، فهناك من يقر بالذنب إفاقة ، وآخر

---

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم . قيل : يا رسول الله إن كانت لكافية ، قال : فضلت عليهن بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها » . أخرجه البخارى (٣٢٦٥) ومسلم (٢٨٤٣) .

(٢) اعترافهم وتوبتهم عن التخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك .

يقر الذنب فى صفاقة ، مثلما تقول لواحد : هل ضربت فلاناً ؟ فيقول : نعم ضربته ، أى أنه اعترف بذنبه ، وقد يضيف : وسأضرب من يدافع عنه أيضاً ، وهذا اعتراف فيه صفاقة .

أما من يعترف اعتراف إفاقة ، فهو يقر بأنه ارتكب الذنب ويطلب الصفح عنه ، وهذا هو الاعتراف المقبول عند الله . وهم قد ﴿اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ اعتراف إفاقة ، بدليل أن الله قال فيهم : ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ وعملهم الصالح هنا هو إقرارهم بالذنب ومعرفتهم أن فضيحة الدنيا أهون من فضيحة الآخرة ، أما عملهم السيىء فهو التخلف عن الجهاد والإنفاق .

واعترافهم هذا هو اعتراف الإفاقة ، واختلف العلماء : هل هذا الاعتراف يعتبر توبة أم لا ؟

نقول: إن الحق سبحانه وتعالى حينما قال: ﴿ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ ثم قوله : ﴿ عَسَى [1] اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أى : رجاء أن يتوب عليهم ، وهذه مقدمات توبة وليست توبة ، فإن صاحبها الندم على ما مضى ، والإصرار على عدم العودة فى المستقبل فينْظر هل هذا كان منه مخافة أن يُفضح أم موافقة لمنهج الله [2] ؟

إن كان الأمر موافقة لمنهج الله فتكون التوبة مرجوَّة لهم .

وكلمة ﴿خَلَطُوا﴾ تؤدى معنى جمع شيئين كانا متفرقين ، وجمع الشيئين أو الأشياء التى كانت متفرقة له صورتان ؛ الصورة الأولى : أن يجمعهم

---

(١) عسى فعل جامد دال على الترجي ، وإذا أسند الفعل إلى الله تعالى فمعناه أنه وعد بنفاذ الأمر المرجو أنه نافذ حتماً ، وعسى من أفعال الرجاء وتستعمل على أوجه أكثرها وجهان : الأول : أن يذكر بعدها اسم ظاهر ، والوجه الثانى: أن يذكر بعدها المصدر المؤول .

(٢) فإن كان موافقاً لمنهج الله كان القبول من الله .

على هيئة الافتراق ، كأن تأتى بالأشياء التى لا تمتزج ببعضها مثل : الحمص واللب والفول ، وتخلط بعضها ببعض فى وعاء واحد ، لكن يظل كل منها على هيئة الانفصال ، فأنت لم تدخل حبة اللب فى حبة الحمص ، ولم يتكون منهما شىء واحد ؛ لأنه لو حدث هذا لصار مزيجاً لا خلطاً ، مثلما تخلط الشاى باللبن ؛ لأنك بعد أن تجمعهما يصيران شيئاً واحداً ، بحيث لا تستطيع أن تفصل هذا عن ذاك .

إذن: فهم حين خلطوا العمل الصالح والعمل السَّيِّئ ، لم يجعلوا من العمل الصالح والعمل السَّيِّئ مزيجاً واحداً. لكن العمل الصالح ظل صالحاً ، والعمل الفاسد ظل فاسداً.

وقوله سبحانه : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ كلمة ﴿ عَسَى ﴾ معناها الرجاء [1] وهو ترجيح حصول الخير . وهو لون من توقع حصول شىء محبوب. والرجاء يخالف التمنى ؛ لأن التمنى هو أن تحب شيئاً وتتمنى أن يكون موجوداً ، لكنه لا يأتى أبداً، مثل قول الشاعر :

ألا لَيْتَ الشَّبابَ يَعُودُ يَوْماً ... فَأخبرُه بِماَ فعلَ المشيبُ

إنه قد تمنى أن يعود شبابه ، وهذا دليل على أن فترة الشباب محبوبة ، لكن ذلك لا يحدث. إذن: فإظهار الشىء المحبوب له لونان : لون يتأتى ، ولون لا يتأتى ، فالذى يتأتى اسمه (رجاء) ، والذى لا يتأتى نسميه (التمنى) ، مثل قول الشاعر :

لَيْتَ الكَوَاكِبَ تَدْنُو لِى فَأنظمَهَا ... عُقُودَ مَدْحٍ فما أرضَى لكُمْ كَلمَا

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣١٦٩/٤) : « هذه الآية وإن كانت نزلت فى أعراب فهى عامة إلى يوم القيامة فيمن له أعمال صالحة وسيئة » . وقال ابن كثير (٢/ ٣٨٥) : « هذه الآية وإن كانت نزلت فى أناس معينين إلا أنها عامة فى كل المذنبين الخطائين المخلطين المتلوثين » - والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

فالشاعر يتمنى حدوث ذلك ، ولكنه لن يحدث. أما الرجاء فهو أمل يمكن أن يحدث ، والرجاء له منازل ومراحل بالنسبة للنفس الإنسانية. فأنت عندما ترجو لواحد شيئاً فتقول: «عسى فلان أن يمنحك كذا» ، فأنت هنا مُترَجٍّ ، وهناك مترجَّىً له، هو من تخاطبه ، ومترجَّىً منه ، وهو من يعطى ، فهذه ثلاثة عناصر.

لكن ألك ولاية على من يمنح ؟ لا ، لكن إن قلت: عسى أن أمنحك أنا كذا ، فأنت ترجو لواحد غيرك أن تمنحه أنت ، وهذا أرجى أن يتحقق. وحين تقول : « عسى أن أمنحك » فقد تقولها فى لحظة إرضاء للذى تتحدث معه . ثم قد يبلغك عنه شيء يغير من نفسك ، أو جئت ؛ لتعطيه ، فلم تجد ما تعطيه له ، هنا لم يتحقق الرجاء.

لكن عندما تقول : « عسى الله أن يمنحك » ، فأنت ترجو له من الله ، وهو القادر على كل شيء ولا تؤثّر فيه أغيار ، أما إذا قال الله عن نفسه: « عسى الله أن يفعل » ، فهذا أقوى وسائل الرجاء.

إذن: فنحن أمام أربع وسائل للرجاء . أن تقول : « عسى فلان أن يمنحك » أو أن تقول : « عسى أن أمنحك أنا » ، أو تقول: « عسى الله أن يمنحك » وقد يجيبنى الله ، أو لا يجيب دعائى ، لكن حين يقول الحق: « عسى أن أفعل» فهذا هو اللون الرابع من ألوان الرجاء ، وقالوا : الرجاء من الله إيجاب.

﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، فهذا رجاء أن يتوب الله عليهم ، أما توبة [1] العبد فمسألة تقتضى الندم على ما فات ، والرجوع إلى منهج الله ،

---

(١) تاب : رجع عن المعاصى ، وتاب إلى الله رجع إليه بالطاعة بعد المعصية ، وتاب الله عليه وفقه للتوبة وقبلها منه - قال تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ﴿٣٩﴾﴾ [المائدة]

والعزم على ألا يغضب الله فى المستقبل . أما توبة الله فهى تضم أنواع التوبة، فتشريع الله للتوبة رحمة بمن ارتكب الذنب ، ورحمة بالناس الذين وقع عليهم السلوك الذى استوجب التوبة . فإن تُبْتَ ؛ فقبول التوبة رحمة ثانية ، فلو لم يشرع الله التوبة لا ستشرى كل من ارتكب ذنباً واصطلى المجتمع بشروره . لكن حين يشرع الله التوبة ؛ فهناك أمل أن يرجع العبد إلى الله ، ويتخلص المجتمع من إمكانية عودته للذنب ، وانتهى هو من أن يوقع مصائب بغيره.

فإذا قَبِلَ الله التوبة ، يقال : « تاب الله على فلان »، فلله إذن أكثر من توبة، ولذلك حين تقرأ قوله الحق :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ... (١١٨) ﴾ [التوبة]

أى : شرع لهم التوبة ؛ ليتوبوا ، فإذا تابوا فسبحانه قابل التوب . إذن : فالتوبة ثلاث مراحل : تشريع للتوبة ، ثم توبة واقعة ، فقبول للتوبة . والتوبة رجوع عن شيء ، وهي بالنسبة للعبد رجوع عن ذنب ، وبالنسبة لله إن كان الذنب يستحق أن يعاقب الله به ، فإذا تبت أنت ، فالحق يعفو ويرجع عن العقوبة [1] .

ويُنهى الحق الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ؛ لأن المغفرة بالنسبة للعبد صعبة ، فإن سرق واحد منك شيئاً فهو يضرك ، ويلحّ عليك حب الانتقام منه ؛ لأن الضرر أتعبك ، لكن أيُتْعبُ أحد ربه بالمعصية ؟ لا ؛ لأنك إن

(١) قال الإمام أبو حامد الغزالى فى شرح اسم الله (التواب) : « هو الذى يرجع إلى تيسير التوبة لعباده مرة بعد أخرى ، بما يظهر لهم من آياته ، ويسوق إليهم من تنبيهاته ، ويطلعهم عليه من تخويفاته وتحذيراته ، حتى إذا اطلعوا بتعريفه على غوائل الذنوب استشعروا الخوف بتخويفه ، فرجعوا إلى التوبة ، فرجع إليهم فضل الله تعالى بالقبول » . المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى (ص ١٢٣) ط . مكتبة القرآن .

كنت قد أضررت بأحد فإنما أضررت بنفسك ، ولم تضر الله سبحانه ؛ لأنه سبحانه لا يلحقه ضررٌ بذنبك [1] ، وإنما الذنب لحقك أنت .

فحين يقول سبحانه : ﴿ غَفُورٌ ﴾ فهو غفور لك ، و﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بك . والمصائب أو الكوارث نوعان ؛ نوع للإنسان فيه غريم ، ونوع يصيب الإنسان ولا غريم له . فإن مرض إنسان فليس له غريم فى المرض ، أما إذا سرق إنسان فاللص هو غريمه ، ومصيبة الإنسان التى فيها غريم تدفع النفس إلى الانفعال برد العقوبة إليه ، أما حين تكون المصيبة من غير غريم فهى تحتسب عند الله ، ويقال : إن المصيبة التى ليس فيها غريم هى التى تحتاج لشدة إيمان ، والحق يقول :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى]

هنا يؤكدها ؛ لأن غريمه يلح عليه ، فساعة يراه يتذكر ما فعله غريمه به ، فتكون هناك إهاجة على الشر .

أما قوله سبحانه :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) ﴾ [لقمان]

فلم يؤكدها ، فالمصيبة هنا من سيكون غريمه فيها ؟ والذين اعترفوا بذنوبهم هم قوم تخلفوا بغير عذر ، ثم جاءوا وقالوا : ليس لنا عذر ، ولم يختلقوا أعذاراً ؛ لأننا نعلم أن هناك أناساً لم يعتذروا ، وأناساً آخرين

---

(١) عن أبى ذر عن النبى ﷺ فى الحديث القدسى : « يا عبادى . إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى . ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم . كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئاً » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) وأحمد فى مسنده (٥/ ١٥٤ ، ١٧٧) والترمذى فى سننه (٢٤٩٥) وكذا ابن ماجه (٤٢٥٧) .

اعتذروا بأعذار صادقة ، وآخرين اعتذروا باعتذارات كاذبة ، وهم قد ﴿ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أى : أعلنوا أن اعتذاراتهم عن الغزوة لم تكن حقيقية وأنه لم يكن عندهم ما يبرر تخلفهم عن الغزو ؛ فهؤلاء تاب الله عليهم فى نفوسهم أولاً ، ورسول الله لا يزال فى الغزوة فى تبوك التى تخلفوا عنها .

ثم عاد الرسول من الغزوة ، ودخل المسجد كعادته حين يرجع إلى المدينة ، وأول عمل كان يعمله بعد العودة هو أن يدخل المسجد ، ويصلى فيه ركعتين[١] . فوجد أناساً قد ربطوا أنفسهم بسوارى المسجد وهى الأعمدة فسأل عن هؤلاء ، فقالوا : هؤلاء قوم تخلفوا و كانت أعذارهم كاذبة لكنهم اعترفوا بذنوبهم ، وقد عاهدوا الله ألا يحلوا أنفسهم حتى تكون أنت الذى تحلهم وترضى عنهم فقال ﷺ : «وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أؤمر بإطلاقهم ؛ رغبوا عنى وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين »[٢] . فلما أنزل الله هذه الآية حلهم رسول الله ومنهم : أبو لبابة .

ولذلك من يذهب ليزور المدينة إن شاء الله ، سيجد أسطوانة اسمها " أسطوانة أبى لبابة" وهو أول من ربط نفسه على السارى ، وقلده الآخرون . وهذا يدلك على أن المؤمن حين تختمر فى نفسه قضايا الإيمان فهو لا ينتظر أن يعاقب من الله ، بل يبادر هو إلى أن يعاقب نفسه .

ومثال ذلك : المرأة التى زنت ، والرجل الذى زنا ، واعترفا لرسول الله ليرجمهما[٣] ، ومعنى ذلك أنهما لم ينتظرا حتى يعذبهما الله ، بل ذهب

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) ضمن حديث طويل عن كعب بن مالك فى توبته من تخلفه عن غزوة تبوك مع رسول الله ﷺ . وأخرجه مختصراً أحمد فى مسنده (٣/ ٤٥٥) وأبو داود فى سننه (٢٧٧٣) .

(٢) انظر سبب نزول الآية فى تفسير القرطبى (٤/ ٣١٦٨) وأسباب النزول للواحدى (ص ١٤٨) .

(٣) الرجل هو ماعز بن مالك الأسلمى ، أخرج قصته البخارى فى صحيحه (٦٨١٥) ومسلم (١٦٩١) وفى بعض طرق مسلم أن ماعزاً قال : يا رسول الله إنى قد ظلمت نفسى وزنيت وإنى أريد أن تطهرنى . أما المرأة فهى الغامدية . أخرج قصتها مسلم (١٦٩٥) .

كل منهما بنفسه . ولذلك حين جاء سيدنا عمر ، وكاد أن يركل جثة أحدهما قال الرسول : « دعها يا عمر فقد تابت توبة لو وزعت على أهل الأرض لوسعتهم »(١) .

وكون أبى لبابة يربط نفسه بالسارية ، فهذا يدل على أن المؤمن إذا اختمرت فى نفسه قضية الإيمان ، فإنه لا يترك نفسه إلى أن يلقاه الله بعذابه ، بل يقول : لا ، أنا أعذب نفسى كى أنجو من عذاب الله ، فهو قد تيقن أن هناك عذاباً فى الآخرة أقسى من هذا العذاب . فلما اعترفوا بذنوبهم وراجعوا أنفسهم متسائلين : ما الذى شغلنا عن الغزو ، وجعلنا نعتذر بالكذب ؟ وجدوا أنهم فى أثناء غزوة تبوك وقد كانت فى الحر ، وفيه كانت تطيب جلسات العرب تحت الظلال وأن يأكلوا من التمر . فقالوا : والله ، إن المال هو الذى شغلنا عن الغزو وجعلنا نرتكب هذا الذنب ، و لابد أن نتصدق به ؛ لذلك قلنا : إن هذه لم تكن الصدقة الواجبة ، بل هى صدقة الكفارة .

وهؤلاء قالوا للرسول ﷺ : خذ هذا المال الذى شغلنا عن الجهاد ، فلم يقبل حتى ينزل قول من الله ، فأنزل الحق قوله :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾

هذه هى الصدقة غير الواجبة ؛ لأنها لو كانت الصدقة الواجبة لما احتاجت إلى أمر جديد ، بل هى صدقة الكفارة .

(١) وذلك أن رسول الله ﷺ أمر بالمرأة فرجمت . ثم صلى عليها . فقال له عمر : تصلى عليها يا نبى الله وقد زنت ؟ . فقال : « لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٩٦) وأحمد فى مسنده (٤/ ٤٤٠) .

وقوله الحق : ﴿ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ يعنى أموال من اعترفوا بذنوبهم ، وقد نسب الأموال وملكيتها لهم ، رغم أن المال كله لله ، مصداقاً لقوله :

﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ... (٣٣) ﴾ [النور]

ولكن الحق ينقله إلى خلقه تفضلاً منه ، وأوضح سبحانه إذا قلت لكم : أخرجوا شيئاً من المال الذى وهبتكم إياه فلن أرجع فيما وهبته لكم ، ولذلك إذا احتاج مؤمن شيئاً من مؤمن مثله ، فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ ... (٢٤٥) ﴾ [البقرة]

وسبحانه واهب المال وهو يحترم هبته لصاحب المال .

وقوله : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ لاحظ فيه العلماء أن المال حين يضاف إلى صاحبه فهو تطمين له ، حتى يتحرك فى الحياة حركة فوق ما يحتاج ، ويبقى له شيء يتموّله ، وبذلك يحرص الإنسان على الحركة التى ينتفع بها الغير ، وإن لم يقصد . فيوضح له الحق : اطمئن إلى أن كل شيء سيزيد عن حاجتك يصبح ملكاً لك ، ولا يخرج المال عن ملكية صاحبه إلا إذا كان صاحبه غير أهل للتصرّف [١] ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ... (٥) ﴾ [النساء]

لأن السفيه [٢] لا يصح أن يتملك ؛ لأنه بالحمق قد يضيع كل شيء ،

---

(١) وهذا ما يعرف بالحَجْر ، قال ابن كثير فى تفسير ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ (٥) ﴾ [النساء] : « ومن ههنا يؤخذ الحجر على السفهاء ، وهم أقسام ، فتارة يكون الحجر للصغر فإن الصغير مسلوب العبارة ، وتارة يكون الحجر للجنون ، وتارة لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين ، وتارة للفلس وهو ما إذا أحاطت الديون برجل مضاق ماله عن وفائها ، فإذا سأل الغرماء الحاكم الحَجْر عليه حَجَرَ عليه » . (١/ ٤٥٢) .

(٢) السفيه : هو ناقص العقل سيء التصرف يقول الحق : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ (٥) ﴾ [النساء] أى : الذين يسيئون التصرف لجهلهم أو نقص عقولهم ، ويقول الحق أيضاً : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ... (١٣٠) ﴾ [البقرة] حملها على الجهل والطيش .

فينزل الحق الحكم : إن مال السفيه الذى يملكه ليس ماله إنما هو مالكم .
ولكن إلى متى ؟ فيأتى القول الحق :

﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ .. ﴿٦﴾ ﴾ [النساء]

أى : ردوا إليهم أموالهم متى عادوا إلى الرشد وصاروا أهلاً للملكية .

والحق فى هذه الآية يقول :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ والله سبحانه وتعالى هو صاحب المال ، وهو يأتى بالمال ، بالأسباب التى جعلها للبشر فى حركة الحياة ، وأمّنهم على عرقهم ، وأمّنهم على ما يملكون ؛ حتى لا يزهد أحد فى الحركة ؛ فلو أخذ كل واحد من حركته على قدر نفسه ، ولم يتملك المال ؛ لضنّ الناس بالحركة . وإذا ضن الناس بالحركة ؛ فلن يستفيد غير القادرين على الحركة ، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يجعل ما يزيد على حاجات الناس ملكاً لهم ؛ لأن النفس تحب أن تتملك ، والتملك أمر غريزى فى النفس ؛ بدليل أن الله سبحانه وتعالى هو الذى طلب أن يؤخذ من الأموال ، وأوضح أنه يضاعفها له ، ومعنى أنه يضاعفها عنده أنه يُنمى فيه غريزة التملك .

وقوله الحق : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ نلحظ فيه أن الأموال أضيفت لأصحابها ، ما لم يكن فيهم سفه فى التصرف أو عدم رشد ؛ بأن يكون وارث المال قاصراً لا يقدر على التصرف فيه ، فأوضح لنا سبحانه : لا تعتبروا مال السفيه ولا مال القاصر ماله ، ولكن ليرعى الوصىّ المال باعتبار أنه ماله هو ، وحذَّر سبحانه الوصىَّ : إياك أن تتعدى فى ملكية هذا المال ؛ لأن الذى جعله مالك ، إنما جعل الملكية من أجل القيامة على المال ، ولأجل هو أن يبلغ القاصر رشده ، أو يرجع السفيه إلى عقله .

﴿ وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ... ۝٥ ﴾ [النساء]

فإياك أيها الوصى ، أن تظن أن الله قد أعطى لك هذا المال ، بل جعل لك حق القيام عليه فقط ، ثم يقول سبحانه : ﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ ولم يقل : « فادفعوا إليهم أموالكم » وإلا كان الأمر صعباً على الناس .

وهنا ملحظية لحظها العلماء رضى الله عنهم ، وهو أن المال إذا كان فيه حق معلوم للسائل [1] والمحروم ، فلا يصح أن ينسب الإنسان المال كله لنفسه ؛ لأن له شركاء فيه هما السائل والمحرو م ، فالمال - إذن - ملكية صاحبه باستثناء حق السائل والمحروم.

وفى آية أخرى قال الحق :

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝٢٥ ﴾ [المعارج]

و«الحق المعلوم » هو الزكاة المفترضة من نصاب معلوم بقدر معلوم ، وأما الأمر الثانى فهو حق أيضاً ، ولكن الذى يوجبه ويحدده هو صاحب المال على نفسه ، وهو التطوع ، ولذلك لم يقل : حق معلوم كما فى سورة الذاريات :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝١٩ ﴾ [الذاريات]

(١) الحق المعلوم هو الزكاة المفروضة ، والحق الغير معلوم هو ما ترك لاختيار النفس فى العطاء للوصول إلى مقام الإحسان بقدر كرمه مع الله .

لقد ذكر سبحانه هنا الحق ولم يقل إنه معلوم ؛ لأن صاحب المال داخل في مقام الإحسان [1] ، وهو المقام الذى يلزم الإنسان فيه نفسه بشيء فوق ما فرض الله من جنس ما فرض الله . والله سبحانه لم يفرض على الإنسان أن يقوم الليل كله ، أو يظل الليل يستغفر ، بل إن المسلم له أن يصلى العشاء وينام ، ثم يقوم لصلاة الفجر . لكن إن وجد فى نفسه نشاطاً ، فهو يقوم الليل ؛ لأنه يريد أن يدخل فى مرتبة الإحسان .

وكذلك يؤدى المسلم الزكاة وهذا حق معلوم ، أما إن رغب المسلم فى أن يدخل فى مقام الإحسان فهو يزيد على الزكاة ، وقد جعل الله هذا حقاً لكنه غير معلوم ؛ ليفسح لأريحيات الكرام أن يتجاوزوا الحق المعلوم ، فبدلاً من اثنين ونصف بالمائة ، قد يجعلها الداخل إلى مقام الإحسان ضعف ذلك أو أكثر .

ووقف العلماء رضى الله عنهم هنا وقالوا : إن قوله الحق : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ لا يعنى اعتبار الجزء المأخوذ من المال للفقير هو حق الفقير ، بل هو مال المؤدى ، ولو بيّن الله حق الفقير وعزله عن مال صاحبه ، فهذا يعنى أن المال إن هلك فليس للفقير شيء ، ولكن لأن المال مال الغنى فحق الفقير محفوظ فى ذمة صاحب المال ، وهذا أفضل للفقير ، فإن الغنى لو لم يؤد الزكاة فى ساعتها ، وبعد ذلك حدث أن هلك المال ، فالغنى ضامن لحق الفقير .

---

(١) حَسُنَ الشيء صار حسناً جميلاً قال تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩)﴾ [النساء] - أى : صار رفيقاً حسناً - « وأحسنُ » أفعل تفضيل ، مؤنثه « الحسنى» قال الحق : ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ (١٨)﴾[الزمر] - وقال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ (٩٥)﴾ [النساء] - أى : المنزلة التى هى أحسن المنازل ، والإحسان هو الكرم المخلص والعطاء الخالص ، والإحسان إلى الوالدين إكرامها - وهو أعلى مقامات القرب إلى الله .

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ ﴾ والصدقة تطهرهم ؛ لأن الذنب الذى فعلوه واعترفوا به تسبّب فى تقذير أنفسهم بالمعصية ، وماداموا قد قذروا أنفسهم بالمعصية [1] ، فهم فى حاجة أن يُطهَّرُوا بالمال الذى كان سبباً فى عدم ذهابهم إلى الغزوة.

وانظر هنا إلى ملحظ « الأداء البيانى » فى القرآن ، فالحق سبحانه يقول: ﴿ خُذْ ﴾ وهو أمر للنبى ﷺ ، ويقول: ﴿ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ من أموال الأغنياء ، هذه الصدقة ستذهب للمحتاج ، إذن هنا أربعة عناصر: آخذٌ هو رسول الله ﷺ ، ومأخوذ منه هو صاحب المال ، ومأخوذ هو المال ، ومأخوذ له هو الفقير المحتاج.

وما دام الأمر لرسول الله ﷺ ، فهذا الأمر ينسحب بالتالى على كل من وَلِىَ أمراً من أمور المسلمين . ولقائل أن يقول: ولكنها صدقة وليست زكاة. ونقول : ما دام الله هو الذى أمر بها تطهيراً فقد صارت واجباً، والآية صريحة ، وتقتضى أنه مادامت هناك ولاية شرعية ، فولى الأمر هو الذى يأخذ من الناس ويؤدى للفقراء ، أو لأوجه الصرف التى شرعها الله [2] ؛ لأن الله لا يريد أن يعذب الفقير بأن يمد يده آخذاً من مُسَاوٍ له ، أما إن أخذ من الوالى وهو المسئول عن الفقراء ، فلن يكون عيباً ، كما أن

(١) أى: جعلوا أنفسهم محلا للّوم والتقبيح . وقد أخرج الإمام مالك فى موطئه (ص ٨٢٥) من حديث زيد بن أسلم مرسلاً أن رسول الله ﷺ قال: « أيها الناس قد آن لكم أن تنتهوا عن حدود الله، من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بستر الله . فإنه من يبدى لنا صفحته نُقم عليه كتاب الله » .

(٢) ومصارف الزكاة قد بينها سبحانه فى قوله :﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾ [التوبة] ، وقد سبقت خواطر فضيلة الشيخ وإلهاماته عند تفسير الآية. ولولى الأمر الذى يطبق شرع الله أن يأخذ من أموال المسلمين لإقامة صرح العدالة فى المجتمع مصداقاً لمفهوم الآيات .

الحق سبحانه يريد أن يحمى أهل الفقير من أن يعلموا أن البيت الفلانى يعطى لهم زكاة ، فيعانى أولاد الآخذ من المذلة أمام أولاد المعطى ، ويعيش أبناء المعطى فى تعالٍ لا لزوم له. إذن: فحين يكون الوالى هو الذى يعطى فلن يكون هناك مُستعلٍ أو مُستعلًى عليه.

أما إن لم تكن هناك ولاية إسلامية، ولا يعلم الإنسان إلى أين ستذهب الأموال، فهنا يصبح على كل إنسان أن يراعى محيط دينه وهو يخرج الزكاة وحينئذ يكون عندنا مُعْطٍ هو صاحب المال، ومال مُعْطًى ، ومعطًى له هو الفقير.

وعلى من يعود قوله الحق : ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم ﴾ ؟ السطحيون فى الفهم يقولون: إنها تطهر من نأخذ منه المال، وتزكّى المال الذى نأخذ منه. لكن من يملك عمقاً فى الفهم يقول: مادامت هناك فى هذه الآية عناصر، فضرورى أن يعود التطهير[1] والتزكية عليها ، وإنها تطهر وتزكى المأخوذ منه صاحب المال ، وكذلك تطهر وتزكى المال المأخوذ ، وأيضاً تطهر وتزكى المأخوذ له وهو الفقير ، لأن التطهير معناه إزالة قَذَر ، والتزكية نماء.

القذارة أمر عارض على الشىء الذى نغسله ونطهره ، وتنمية له بشىء عائد عليه فيزداد ، وهكذا تُطهر الصدقة وتزكى عناصر الفعل كلها. والتطهير لمن يعطى، له معنى معه ، والزكاة لها معنى معه ؛ لأنك إن أخذت منه المال ، فقد يكون قد غفل وأدخل فى ماله شيئاً فيه شبهة، فالصدقة والزكاة تطهران هذا المال.

---

(١) طهُرَ يَطهُر من باب كَرُم ونصر - طُهراً وطهارة زال عنه الدنس والقذر حسياً ومعنوياً ، وطهرت النفس سلمت من الآفات الخلقية وتنزهت عن النفاق وعن الحقد وعن كل الرذائل قال تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا (٦) ﴾ [المائدة] . هذا فى الحسيات وقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا (١٠٣) ﴾[التوبة] تنزه قلوبهم وأنفسهم من الآفات الخلقية ، وهذا فى المعنويات .

أما كيف تنمِّى صاحب المال ؟ أنت إن أخذت منه وهو قادر، معنى ذلك أنك تطمئنه أنه إذا احتاج فستعطيه ، وبهذا يعرف أنه لا يعيش فى المجتمع بمفرده ، ولا يخاف أن يضيع منه المال ، واطمأن لحظة أن أخذت منه المال وهو قادر كى تعطى المحتاج ، فكأنك تطمئنه وتقول له: أنت لو احتجت فلن تضيع ، وبذلك تُنمِّى تواجده وثقته ، وطهرته أيضاً من أن يكون فى ماله شبهة ، هذا من ناحية صاحب المال.

أما من ناحية المال نفسه ، فالصدقة تطهر المال ؛ لأن المال قد يزيد فيه شىء فيه شبهة فالزكاة تطهره.

وقد يخيل إليك أنك حين تأخذ من المال فهو ينقص ، عكس الربا الذى يزيد المال ، فالربا مثلاً يحقق زيادة للمائة جنيه فتصبح مائة وعشرة مثلاً، أما المزكِّى فالمائة جنيه تصير سبعة وتسعين ونصفاً ، والسطحى يرى أن الزكاة أنقصت المال وأن الربا يزيده ، ولكن هذا بمقاييس البشر ، لا بمقاييس من يملك الأشياء ؛ فالزكاة التى تعتبرونها نقصاً تنمِّى ، والربا الذى تعتبرونه ينمّى إنما يُنقص ، والحق يقول:

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ [1] الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ... (٢٧٦) ﴾ [البقرة]

إذن : فهناك مقاييس عند البشر ، ومقاييس أخرى عند الحق ، فما رأيته منقصاً لك ، هو عند الله زيادة ، وما رأيته مزيداً لك ، هو فى الواقع نقصٌ ، كيف ؟ لأن الناس لا ينظرون إلا إلى رزق الوارد الإيجابى ، ويظنون أن هذا هو الرزق ، ولا يتذكرون أن هناك رزقاً اسمه « رزق السلب» ، فرزق الإيجاب قد يزيد دخلك مثلاً من مائة إلى مائة وعشرة .

(١) محقه من باب فتح : أنقصه ، أو أبطله ، أو أهلكه قال تعالى : ﴿ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) ﴾ [آل عمران] أى يهلكهم وقال: ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا (٢٧٦) ﴾[البقرة] أى ينقصه أو يهلكه ، نقيض ما يفعل بالصدقات .

ورزق السلب يتمثل فى أنك تصرف سبعين فقط ، بدلاً من أن تصرف مائةً ، فيبقى لك ثلاثون ، بالإضافة إلى أنه يمنع عنك مصارف الشر . هذا من ناحية المال .

والحق يقول :

﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) ﴾ [الروم]

وكيف تكون الصدقة تطهيرا للآخذ وهو لم يذنب ذنباً يحتاج إلى تطهير ، بل هو مُعطىً له لأنه محتاج ؟ ونقول : إن الآخذ حين يأخذ من مال غيره ، وهو عاجز عن الكسب فهو يتطهر من الحقد على ذى النعمة ؛ لأنه وصله بعضٌ من المال الذى عند ذى النعمة ، فلا يحقد عليه ولا يحسده ، فهو إن رأى عنده خيراً ، دعا له بالزيادة ؛ لأن بعضاً من الخير يعود عليه .

والفلاحون فى ريف مصر يهدون بعضهم بعضاً من لبن ماشيتهم ، أو بعضا من الخير الخارج من لبنها ، وساعة أن تمر إحداها على أهل القرية يدعون الله بحمايتها ، وهكذا تتطهر نفس الفقير من الحقد والحسد .

هذا عن التطهير ، فماذا عن التزكية والنماء ؟ إن الفقير ساعة يرى نفسه فقيراً ، ويرى أن المجتمع الإيمانى يقوم برعايته ولا يتركه وحيداً ، ويتسابق أهل الخير لنجدته ، فنفسه تنمو بالاطمئنان ؛ لأنه فى مجتمع إيمانى . إذن : فقوله الحق : ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم ﴾ راجع لكل العناصر فى الآية .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : ادع لهم بالخير ؛ ولذلك كان النبى ﷺ كلما أتاه قوم بأى صدقة قال : « اللهم صلِّ عليهم » فأتاه

أبو أوفى بصدقته ، فقال : « اللهم صلِّ على آل أبى أوفى »[(١)] ، هذه هى التزكية القولية التى يحب كل مسلم أن يسمعها فيعطِى ، ويجدّ ويجتهد من ليس عنده ؛ ليسمعها من رسول الله ﷺ .

وقوله الحق : ﴿ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ أى : اطمئنان لهم ، وما دام الرسول ﷺ قد دعا له ، فهو قد اطمأن إلى أن صدقته وصلت إلى مرتبة القبول حيث جازاها رسول الله بالدعاء . وإذا ما سمعها الآخذ للصدقة يقول بينه وبين نفسه : ولماذا لا أجِدّ فى حياتى وأجتهد ؛ حتى أظفر بتلك الدعوة من رسول الله ﷺ ؟

ويُنهى الحق الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى أنه سبحانه ﴿سَمِيعٌ﴾ لكل ما تعتبره قولاً . و﴿ عَلِيمٌ ﴾ بكل ما تعتبره فعلاً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾

و﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ مكونة من ثلاث كلمات هى : همزة استفهام ، « لم » حرف نفى ، و«يعلم» وهو فعل . فهل يريد الله هنا أن ينفى عنهم العلم أم يقرر لهم العلم ؟ لقد جاء سبحانه بهمزة يسمونها « همزة الاستفهام الإنكارى » والإنكار نفى ، فإذا دخل نفى على نفى فهو إثبات ، أى «فليعلموا » .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٤٩٧) ومسلم (١٠٧٨) من حديث عبد الله بن أبى أوفى .